نظرات لغويّة في نماذج من طُرف (كورونا)

Linguistic glances with models of Corona's jokes

أ.د. محمّد عطا موعد

جامعة دمشق، (سوريا) البريد الإلكترونيm.mawedd@gmail.com

تاريخ الاستلام2020/09/30 تاريخ القبول:2021/01/12 تاريخ النشر: 2021/03/01

الملخّص باللّغة العربيّة:

يرمي هذا البحث إلى النّظر في لغة الطُّرفة أو (النُّكتة) التي أقيمت حول (كورونا)، ذلك أنّ وسائل التواصل الاجتماعي قد عجّت بذلك.

وسيتناول البحث نماذج من الطُّرف، ويخوض في تحليل لغتها، ذلك أنّ جلّها قد قام على لغة ضعيفة ركيكة، أضف إلى ذلك أنّ كثرتها تمور بالأخطاء الإملائية واللغوية، وقد بُنيت على أسلوبٍ في العرض ضعيفٍ..

ومثل هذا يبدي مِنْ طَرف خفيّ أبعاداً نفسية واجتماعية وفكرية وحضارية-يحاول البحث أن يخوض في أطراف منها- ولعلّها جميعاً تصبّ في ذلك الوعاء الضخم: وعاء لغتنا، ذلك الوعاء الموصول بالفكر .

الكلمات المفتاحية: كورونا; الطُّرفة; وسائل التواصل الاجتماعي; الهويّة; الشّخصية;

الملخص باللغة الإنجليزية

ABSTRACT :

This research aims to shed light on the anecdotes or jokes about the Coronavirus (COVID-19; since they spread on social media platforms.

This research will directly address some sorts of those jokes, and analysis their language, because most of them were based on weak and prosaic language. Also, the majority is filled with spelling and linguistic errors and is presented cheaply.

Keywords:

Coronavirus; anecdote; social media; identity; personality.

نص المقال:

يطيب لي بداية من مدينة الياسمين، مدينةِ المحبّ العاشق له ولها شاعرِها الكبير نزار قباني أن أنقل لكم أندى تحيات المشرق إلى المغرب، حيث يرقد جسد الأمير الكبير عبد القادر الجزائري، واسمحوا لي أن أقترضه منكم، لأعيده إلى معشوقته (الشام) فأَسِمه بهذا الوَسْم والوِسَام: (أمير الشام)، فأخاطب أحفاده الكرام مجزلاً لهم كل عبارات الشكر والتقدير لعقد هذا الملتقى الكريم الذي دأبت فيه اللجنة المنظمة له، وعلى رأسها أخي د. محمّد بسناسي على بذل كلّ جهد لإنجاحه، فكلّ الشّكر لكم، ولجامعة وهران، وكذا فالشّكر موصول للزملاء المشاركين فيه كافة.

يعود تعاملي والطّرفة مذ كنتُ طالباً في السنة الأولى في قسم اللغة العربيّة بجامعة دمشق، فقد تفتّحتْ مني العيون على خفّة ظلّ عالية الكعب ألفيتُها في أستاذ الأجيال: أستاذنا العلامة الجليل عاصم بهجة البيطار رحمه الله، ذلك الشيخ الدمشقي الذي أطاق توظيف الطّرفة في أعسر المواد تعلّماً على الطلبة: النّحو والصّرف، فغدت المادة حلوة نديّة مفهومة مهضومة بفضل خفّة ظلّ فارسها رحمه الله.

كان يسوق النكتة عفو الخاطر بلغة عربيّة فصحى، وكان هذا يضفي عليها مزيداً من الألق والنّداوة والحلاوة.

أذكر مرّة أنّ المدرج الأول في كليّة الآداب كان يطفو بالطلبة، فجاءت طالبة متأخرة فلم تجد مكاناً مناسباً تجلس فيه؛ لأن الأماكن قد شغلتها الطلبة، ومن لم يكن له مكان افترش الأرض مُصغياً للشيخ، فوقفتْ تلك الطالبة—وهي تُبدي ضجرها من الازدحام- في مكان ظهر للأستاذ أنها مترددة بين الدخول والخروج، فنظر إليها قائلاً: يا آنسة!! إن أحببتِ أن تدخلي فأهلاً بك، وإن أحببتِ أحداً ناديتُه لك.

فضجّ المدرج بالضحك، وولّت الفتاة لا تلوي على شيء.

وأذكرُ أنّ الأستاذ كان يشرح بحث الفاعل، فقال: جاؤوا الطلاب، هذا على لغة، لغة ماذا؟ متظاهراً أنه قد نسي اللغة التي جاء عليها المثال، فقالت إحدى الطالبات، وهي تظنّ أنها تُذكّرُ الأستاذَ بما اعتراه من سلوان: لغة (أكلوني البراغيث)، فقال الأستاذ: صحّة وهنا.

وفي هذا حديث يطول لا يتسع الموضع له، غير أنّ مثل هذا أفدتُ منه في مجال التّدريس، خصوصاً أني قد حاكيتُ أستاذي في تخصصه.

وكانت بعض المواقف في أثناء التدريس تفرض عليّ فرش شيء من الدّعابة والطّرفة؛ وكنتُ أحاول أن أُوظّف النكتة في نشر العربيّة الفصحى من طَرف خفيّ، فتبدو هذه اللغة قادرة على استيعاب الطّرفة، ومواكبة روح الدّعابة.

أذكرُ مرّة أنّ موقفاً في إحدى المحاضرات فرض عليّ أن أروي طرفة باللغة العربية الفصحى للطلاب، فسقتُ لهم: أنّ رجلاً ثقيل الظّل اجتمع بآخر غليظ، فقال الأول للآخر: كيف تتغالظ على الناس؟

أجابه: انظر إلى ما سيكون مني الآن!

فأخرج من جيبه جهاز جوّاله، واتّصل برقم لا على جهة التعيين، بعد أن فتح مكبّر الصّوت، فردّت عليه فتاة، فقال لها: هل الدكتور أحمد هنا؟

قالت له: أنت مخطئ.

فأعاد الرقم نفسه والسؤال ذاته: فقالت له: أنت مخطئ.

ثم اتصل مرّة ثالثة وكرر السؤال، فقالت له الفتاة: أنت غليظ.

فقال لصاحبه: سمعتَ، هكذا أتغالظ على الناس.

فما كان من الغليظ إلاّ أن قال للثقيل: وأنت كيف تتثاقل عليهم؟

طلب الثقيل جوّال صاحبه، وأعاد الرقم نفسه، ومكبّر الصوت مفتوح، فردّت الفتاة نفسُها: فقال الثقيل لها: أنا الدكتور أحمد، في أحد اتصل بي؟

أجابته: أنت ثقيل.

هكذا –أو قريب من ذلك–رويتُ النكتة للطلبة، فضجّ المدرج بالضحك، ثم فؤجئتُ بأن طالباً قال: دكتور والله النكتة باللغة العربيّة الفصحى أجمل بكثير من العامية، صدّق دكتور شعرتُ وأنت تروي النكتة بأن لغتنا أنيقة وجميلة وحلوة .

ومثل هذا يقودني في زمن (كورونا) إلى النّظر في بعض الطرائف التي عجّت بها وسائل التواصل.

من ذلك مثلاً :

الحمد لله والشكر لله:

كل الفحوصات يلي بحارتنا طلعت نتائجها مخدرات.....فش كورونا.

ففي هذه الطّرفة يُلحظ انحدار المستوى اللغوي:

فلينظر إلى استعمال جمع (فحص) على (فحوصات)، جمع ذو ظلّ غليظ.

واستعمال كلمة (يلي) بدلا من (الذي).

واستعمال كلمة (فش) بدلا من أداة للنفي.

وهذا يكشف أنّ من صاغ الطّرفة لديه لغة ركيكة ضعيفة.

ولو كانت لديه لغة عربيّة فصحى قويمة لكان بإمكانه أن يستغني عن تلك المفردات، وأن تصاغ على نحو أفضل، وهذا لا يتطلب أن يكون من صاغها متخرجاً في أقسام اللغة العربية، بل يتطلب إلماماً

عاماً بالعربية يمكن اكتسابه من المراحل السابقة للجامعة، فهل من الصّعب مثلاً أن يستبدل هذا الجمع (فحوصات) بعبارة (نتيجة التحليل المخبري)، وهو لفظ يستعمله عامة الناس في الشام.

ثم إنّ هذه الطرفة تبدي طَرَفاً من البعد الاجتماعي، يتصل بانتشار المخدرات.

وثمّة جانب آخر يراه المرء فيها، وهو إيجابي، إذ تظهر ذلك التلاحم بين الناس في الحارات الشعبية، في إسناد (ضمير الجماعة نا) إلى كلمة حارة (حارتنا).

ولعلّ هذا التلاحم يَظهر أيضاً في إيقاع النفي في استعمال عبارة (فش كورونا) إذ يسري منها الاطمئنان إلى نفس المتلقّي، حيث النّفي القطعي، وهو نصّي، لا يُعرف لسبيل الاحتمال له مسلك .

فهذا أنموذج وسط بين الفصحى والعامية، تجدُ فيه مستوى قويماً من فصيح سرى إلى الأسماع، ويبدو هذا في بدايتها التي استهلّت بالحمد والشكر.

ومعلوم أنّ البيئة الدينية كان لها حتى منتصف القرن العشرين كبيرُ أثرٍ في فشوّ لغة قويمة بين الناس.

وثمّة أنموذج آخر يمكن أن نقف عليه من طرائف كورونا هو:

بيسلم عليكن الفريق الحكومي لمواجهة كورونا وبيقلكن فخار يكسر بعضو.

يُلحظ ضعيفُ اللغة وركيكُها في استعمال الكلمات: (بيسلم) (عليكن) (وبيقلكن) (بعضو).

وماذا يضير العربيّة لو كان صوغ الطرفة على نحو آخر تُراعى فيه لغةٌ أعلى مستوى من هذا، والأمر لا يعوزه إلاّ يسير معرفة بها، فتلك الكلمات يمكن أن تغدو:

يسلّمُ، عليكم، ويقول لكم، وبعضه.

والانتقال من ذلك المستوى الضحل الركيك إلى مستوى أعلى يُقارب الفصيح هو أمر ممكن مع قليل من العناية بالعربيّة، فلو درج من صاغ تلك الطرفة على مخالطة لغة فصيحة في أثناء دراسته الأولى لَمَا ألفيتَ منه مثل فاحش تلك الأخطاء.

ومن الطرائف التي يمكن أن أقف عليها:

أسهل طريقة وأرخص اختبار لتفحص حالك من الكورونا بتحمل حالك وبتنزل عالبزورية شميت شميت! وإذا ما شميت إنت مكورن يا غالي.

فهذه طرفة فيها بعض عاميّة تبدو في استعمال عبارات من مثل: (لتفحص حالك، بتحمل حالك، شميت).

وفيها انزياح الذال في كلمة (بزوريّة) فالأصل: بذوريّة، من: (البذور) والأصل أنها سوق في الشام خلف مسجد دمشق يعجّ بالمحلات التي تبيع البذور المختلفة، والعطورَ والأزهارَ المجففة، لذا تراها تضجّ بعبق يأخذ بمجامع القلب واللبّ.

وثمّة انزياح آخر تراه في تعبير: (شميّت)، فالأصل في الفصيح: شممتَ، ومثل هذا الانزياح في عاميّات الشام كثير: يقولون: ضليّت في: ظللتُ، وضجّيت، وعديّت ، ومرّيت، وسواه كثير.

ثم يُلحظ أيضاً، كسر همزة الضمير: أنت، فغدا: إنتَ، وهو كثير في لغة العامة خصوصاً لبنان، وتراه يفشو في أغاني (فيروز).

ثم يُلحظ أيضاً: هذا النّحت (مكورن).

وهو نحتٌ فشا كثيراً في العامية، نسمع الآن في زمننا (وتّستلو)، أي: أرسلت له رسالة على الواتس، ومثله كثير.

ومنها أيضا: صورة لشخص قد وضعه يده على مكان –لا يليق ذِكْرُه – كُتب عليها:

بِغَضّ النّظر عن فيروس كورونا إحنا لازم نعيد نظر في موضوع السّلام بالإيد بشكل عام.

يلاحظ استعمال الضمير (إحنا)، وهو انزياح غليظ يتأتى من اجتماع الهمزة مع الحاء، ورافق ذلكَ انزياحٌ آخر في تحويل حركة النون إلى ألف المد.

وهو انزياح يُبدي ضعفاً شديداً في استعمال ضمير جماعة المتكلمين في العربيّة، ومثل هذا الانزياح الضعيف لا تراه في لغة مثل الإنكليزية التي يحرص أبناؤها، ومستعملوها على استخدام الضمير فيها استخداماً دقيقاً وصحيحاً، بل إنّك تجد من أبنائنا اليوم ممن يريد "إتمام دراسته العليا في بلاد الغرب أنّه لا يهدأ له بال قبل أن يسافر إلى تلك البلاد، فهو دائم التنقير والتتبع للغةِ من يودّ أن يدرس عندهم، فهو ينتقل من معهد إلى آخر، ومن دورة إلى أخرى، وتكون لغة تلك البلاد هي همّه وغايته؛ لأنه يعلم أن أي تفريط فيها يعني أن ثمّة سوراً منيعاً سيضرب بينه وبين إكمال الدرس والبحث، لذلك تراه يتعلّم دقائق تلك اللغة في التعبير حتى يستقيم لسانه بها، وتراه إذ ذاك يتقن تلك اللغة الأعجمية، على حين أن حظّه من موروث لغته الفصحى نَزرٌ قليل.

وأمام هذا لمَ لا يقال: إننا نرهق أبناءنا في تعلّم هذه اللغة أو تلك، ولمَ لا نتحدّث عن صعوبة ذلك التعلّم، وما يواجه المتعلّم من عسر؛ بل ترى نقيض هذا، ترى الأهل يبذلون المال الكثير، ولا يدّخرون أي جهد في سبيل أن يتقن ولدهم تلك اللغة؛ بل إنك لتسمعُ من عبارات الثناء والتشجيع ما يشحذ نَفْسَ هذا المتعلّم؛ لتبقى في أعلى جاهزية كي يتقن تلك اللغة خير إتقان، فإن كان هذا ألفيت الأب والأم لا ينفكّان في مناسبة وغير مناسبة يفتخران بهذا الابن أو تلك البنت لما يحققّان من إتقان لطرائق تلك اللغة على يديهما.

والسؤال الذي علينا هنا أن نواجهه: لمَ يطيق أبناؤنا تعلّم لغة ليست لغتهم؛ على حين أن الأمر إن خصّ لغتنا الفصحى وضعنا العصي في العجلات؟.

إنّ الناشئة التي تطيق بذل الجهد بعد الجهد في سبيل تعلّم لغة أخرى لهيَ تطيقُ إذن أن تتعلّم أسرار لغتها وخصائصها في التعبير، وهي تطيق كذلك سماع فصيح النصوص وحِفْظَ ما يتناسب وزمننا؛

وهذا هو أسهل بكثير من تعلّم لغة أخرى فيما بعد؛ لأن هذا التعلّم للفصحى إنما يدرج عليه الناشئة وهم في السنين الأولى من حياتهم، ويستمر صعداً في سنوات التعلّم.

وهذا لا يعني طبعاً أنني أعارض تعلّم لغة أخرى، بل أردتُ أنْ أُظهر أنّ مَنْ جاوز سنّ الخامسة والعشرين ممن يبغي إتمام دراسته العليا يستطيع أن يتعلّم لغة أخرى غير لغته الأم، بدافع بناء المستقبل، فهذا يدلّ على أنّ مواصلة بذل الجهد يحقق ما يهدف له المرء ويقصد، ولكن مشكلتنا –نحن العرب–أن أيّ دعوة فيها بذل جهد في سبيل إتقان العربيّة لا تلقى أذناً صاغية، وهي دعوة تغرّد خارج السّرب، وهي دعوة يسِمُها كثير من الناس بالتخلف، وأن من يدعو لها إنما هو امرؤ يريد أن يعيد الناس إلى الماضي السّحيق، ويرجع بهم قروناً إلى الوراء" (موعد2017 :67-69).

ثم فليُلحظ في تلك النكتة هذا التعبير: (لازم نعيد نظر)، وهو تعبير أشبه بتعبير الأعاجم الذين ينتشرون في الخليج العربي، ويعبّرون بعاميّة فيها شديدُ انزياحٍ إلى أعجمية الهنود أو دول جنوب شرقي آسيا ممن يعمل في تلك البلاد، وهو يعيدني إلى حادثة جرتْ أمامي عندما كنتُ مُعاراً من جامعة دمشق إلى مدينة (جُدّة)، حيث جاء أحدهم– وهو للأسف دكتور عربي النّسب واللّسان– إلى مكتب عميد الكليّة، فسأل مدير مكتب العميد: (العميد في)؟.

فهل من المعقول أن ينال انحدارُ المستوى اللغوي من العاميات نفسها، فتتحول العاميات في بلاد الخليج العربي إلى خليطٍ من لغةٍ هي الأدنى في مستويات التعبير على كرّ العصور والدهور، حتى بات كثيرٌ من أخوتنا وأبنائنا هناك لا يتكلمون باللّسان العاميّ الخليجي الذي كان يدرج عليه الناس عبر عشرات السّنين، ويتحوّلون عنه إلى عاميات مكسّرة تعكس جانباً فكرياً وتربوياً يحياه الناس هناك.

إذ بات غير خاف على أحد ممن يزور بلاد الخليج العربي أن يلمس تحوّلا مهولاً في الثقافة والفكر والعادات والتقاليد واللغة، وما ذاك إلاّ لأن جُلّ الناس يستقدمون الخادمة الأعجمية التي تقوم مقام الأمّ في تربية الأطفال وتلبية ما يحتاجون، فيسري إليهم منها كثيرٌ من الطِّباع والعادات والتقاليد والأفكار البعيدة كل البعد عن هويتنا وثقافتنا، فيدرج أطفالنا على عادات الأعاجم، وعلى طرائق تفكيرهم وتعبيرهم وطباعهم، وما ذاك إلاّ لأنّ الأم والأب قد غُيّبا تماماً من حياتهم، إذ يُمضي الطّفل جلّ وقته بين خادمة أعجمية، وسائق أعجمي، فلا تراه يسمع عامية قومه، بل يسمع أخلاطاً من لغات، فيدرج على هذا

الخليط اللّغويّ، فإنْ آلَ إلى المدرسة ألفيتَ حالاً أسوأ، فهو فيها يتعلم الإنكليزية، ولا يعرف من لغته الأم إلا النّزر اليسير اليسير.

"ولعلّ قائلاً يقول: أنتم معاشرَ أهل اللّغة تريدون من الناس عبر صنو هذا الكلام أن يبقوا في إطار الماضي لا يبرحونه إلى الحاضر، وهكذا يبقى الناس يحيون في غابر الزمن، فحضارة الماضي الزاهية والموروث الثقافي والفكري يأسر الناس؛ وهكذا يُضرَبُ بسورٍ عالٍ بينهم وبين المستقبل؟.

إنّ الغاية من هذه السّطور تحفيز الناشئة على النّهل من جيّد الموروث والإفادة منه من أجل بناء شخصية الحاضر، فلا يمكن أن يكون لنا شأن في هذا الحاضر بين الأمم، وأهم مقومات الشّخصيّة –وهي اللّغة– ليست بين يدينا، لذا علينا أن ننهل من مخزوننا الفكريّ والثّقافيّ كي نبني المستقبل، ونعبّر عن هذا المستقبل بلغة العصر؛ بلساننا نحن، وليس بلسانٍ يتكلّف ويتقعّر ويتمحّل، فهي إذن دعوة للعيش في المستقبل .

أجل نحن لا نريد من هذا الجيل أن يبقى حبيس الموروث، وأن يبقى يندب حظّه العاثر؛ لأنه عاش في هذا الحاضر المتخلّف، وحُرم من العيش في ظلال الماضي الرّخي الجميل؛ بل نريد من الناشئة أن يكون الموروث اللغوي والفكري والحضاري والثقافي مُحفّزاً لها على صناعة المستقبل.

وإن البناء اللغوي القويم الذي يعوّل على ذلك الموروث فيصطفي منه ما يناسب عصرنا وحياتنا؛ فيكون خير مِعْوان على استشراف آفاق المستقبل لهو الذي ندعو إليه، وليت النّاشئة اليوم تُنصت إلى رأي شاعر الشّام العلامة شفيق جبري الذي كان يرى أنّ العربية كائن حيّ ينمو ويلد ويعيش، فتخضعَ لِمَا تخضع الكائنات الحية من قوانين الطبيعة في النّشوء والارتقاء وتنازع البقاء، وأنّها في تطور مستمرّ لما لها من سعة ومرونة يمكن أن نفيد منها في إغنائها وصقلها (عكّاش :470)

ومن ينظر في سلسلة المقالات التي خطّها د. شفيق جبري في مجلّة المجمع العلميّ العربيّ بدمشق حول حياة الألفاظ وتطوّرها في العربيّة يجد فيما سطّره ثمّة أنّ هذه اللغة تطيق مواكبة التطور العلمي والحضاري؛ ولذا وجب على الناشئة أن ينهلوا من موروثها الغني؛ فيفيدوا منه في رسم آفاق المستقبل؛ هذا المستقبل الذي لا ينهض دون أدوات تعين على إنجازه، وفي طليعتها تأتي اللغة التي لا يمكن من دونها أن

ننفض غبار السنين عن كنوز التراث الدفين، فتجلوه للناشئة لينهلوا من معين عذب لا ينضب ولا يغور، وأنى له أن يصبح غوراً وفي أعماقه تسمقُ الهوية والشخصية عالية شامخة تدعو من أدبر وتولّى من الناشئة عن ذاك المعين؛ للنهل من عذب كنوزه، وتوظيفها في حياتها المعاصرة.

وثمّة كلمة أخيرة لا بدّ منها، وهي أنّ هذه الدعوة لسماع الفصحى منذ طور النشأة الأول، ثم حفظ النصوص المناسبة فيها كثير من الحلول لأعظم مشكلاتنا؛ لأن النشأة اللغويّة القويمة تعين الأجيال في قابل العمر على التفكير الصحيح والسليم، فالبناء اللغوي السليم يعني بناء فكرياً سليماً؛ لأن وضوح اللغة يعني وضوح الفكر، فالفكر واللغة لا تنفك عراهما البتة، ولما كان لهذا البناء اللغوي هذه القيمة الكبرى في حياة بني البشر ألفيتَ دراساتٍ في علم اللّسانيات الحديث تلج كلّ علم في حضارة الناس اليوم؛ وقد بات من المشهور الفاشي بين الناس مدى أثر علم اللّسان في باقي العلوم؛ لذا بتّ ترى علم اللّسانيات يلج علوم الفلسفة والاجتماع والنفس وسوى ذلك، فأصبح الشّغل الشّاغل للنّاس؛ لأن اللّسان هو الأداة الرئيسية في كل بناء؛ هذا ما يراه المتتبع لأثر علم اللسان في الفكر الغربي والحضارة الغربيّة، وكل ذي لبّ وبصر يعي هذا ويعرفه حقّ المعرفة؛ فلم لا ينبس من يدعي المعرفة والعلم والثقافة في عالمنا العربي ببنت شفة على صنيع الغرب في علم اللّسان، وعلى كبير عنايتهم به؛ بل ترى كثيراً منهم يصفق لذلك، ويجعله من إفراز الحضارة الغربيّة ومن نور المعرفة والثّقافة، بل تراه يرمي كلّ من كان حظّه بعلم اللّسانيات نزر قليل بالتخلف، فإن تعالى النّداء فينا لدراسة لغتنا والإفادة من موروثها وتوظيفه في بناء اللغة والفكر وُسمَ ذلك النداء بكل نعوت التخلف"(موعد2017 :72-75).

والكلام في ركاكة اللغة وضعفها يطول، وأكتفي بما سقتُ؛ لأنّ الوقت لا يسمح بمزيد من التحليل اللغوي حيث تجد الضعف اللغوي الشديد الذي يظهره صوغها، وبالمقارنة مع النكتة في لغات أخرى عند الإنكليز مثلاً تجد البون الشاسع في صوغها، وعلّة ذلك تعود إلى المستوى اللغوي الذي ينشأ عليه الإنكليزي، فالإنكليزي عموماً تراه يجيد لغته؛ لأنّه نشأ في بيئة لغوية تعينه على الاكتساب القويم للغة، ذلك الاكتساب الذي يراه مذ نعومة أظفاره، حيث يغرس في نفسه حبّ لغته، وهو حبّ يلمسه في معلمه أو معلمته، وعدوى هذا الحبّ سرعان ما تسري إلى نفس ذلك الطفل، فتراه هو نفسه يمعن نظره في كل ما يُعرض عليه من أساليبها؛ وتراه دائم التدقيق والتنقير والسؤال عن دقائق اللغة؛ فإذا ما استقام عوده على ذلك صارت لغته تجري في كيانه وروحه ونفسه مجرى الدم.

"ونرى الأسر في أوروبا وأميركا يحرصون أشد الحرص على تعليم أطفالهم اللغة الأم، ويبذلون في سبيل هذا الوقت والمال، ويبتكرون الطريقة بعد الأخرى، ويجرّبون ذلك على أطفالهم، فترى أن تعليم اللغة لأطفالهم يتقدّم خطوة بعد خطوة، ولم نسمع أن الأسر فيها تشفق على أبنائها وهي تتعلم لغتها القوميّة، وتبني عن طريقها شخصيتها، وتدرّبها من خلال ذلك على صقل الفكر، وعلى تحصيل المعرفة، والاعتزاز بلغتها لأنها من الملامح الأساسية للشخصية والهوية التي هي موضع اعتزاز عند الصغير قبل الكبير، فنرى جلّهم لا يتكلم مع قادم إلى بلادهم بلغة أخرى غير لغة بلده، وهو أمر يعرفه كلّ من زار ألمانيا وإنكلترا وفرنسا، وغيرها من البلاد. وأما نحن فنتراجع خطوات إلى الوراء، ومن نظر في لغة الأجيال اليوم، ولغة الناس قبل خمسين سنة يجد البون كبيراً، كنتَ وقتها لا تكاد ترى طالباً حاز الشهادة الابتدائية يخطئ في الإملاء، وخريجو أقسام اللغة العربية اليوم في كلّ البلاد العربية ترى عندهم ابتكارات في الرسم الإملائي يندى لها الجبين" (موعد2017 :37)

وهذا يذكّرنا بما كان عليه العرب في الجاهلية، ثم بعدُ حين آل لواء الحضارة إليهم، حيث كانت"اللغة الفصحى موصولة بين الماضي والحاضر والمستقبل، فهي لغة ليست منقطعة، فهذا طرفة بن العبد في معلقته يسوق ما يربو على ثلاثين بيتاً في وصف ناقته، وهي أبيات يطيق العربيّ أن يفهم معناها بكل يسر وسهولة؛ فبمقدوره أن يعود إلى أي شرح من شروح المعلّقات، وينظر فيه ليقف على وصف طرفة لناقته، وكذا يطيق متعلّم العربيّة أن ينظر في معلقة امرئ القيس فيعرف صفة طلله، وأن ينظر في وصف الليل عنده، أو في وصف الفرس، أو فيما ساقه من غزل أو سوى ذلك، ويطيق أيضاً أن ينظر في شعر الحكمة عند زهير، وفي الشعر الذي ذمّ به الحرب، فيتذوقه وكأنّ زهيراً قد كتبه لأبناء عصرنا، ويطيق أيضاً أن ينظر في شعر حسان، أو بردة كعب، أو شعر الأخطل أو جرير أو الفرزدق أو أبي تمام أو البحتري أوالمتنبي أو أبي العتاهية أو أبي العلاء أو البوصيري، أو ابن نباتة... فيعرف مقاصد شعرهم وأغراضه كما يطيق في الوقت نفسه أن يقف على شعر شوقي أو البارودي أو حافظ إبراهيم، أو إبراهيم طوقان أو السيّاب أو نازك الملائكة أو نزار أو محمود درويش أو سميح القاسم فيعرف مقاصد شعرهم وأغراضه، وما كان لمتعلّم العربيّة هذا لولا التواصل بين ماضي اللغة وحاضرها ومستقبلها، فهذه اللغة التي وصف بها طرفة ناقته في معلقته في الجاهلية هي اللغة ذاتها التي وصف بها شوقي الطائرة، وقس على ذلك، على أنك قد لا تجد هذا التواصل في لغات أخرى، فإنكليزي اليوم لا يطيق قراءة شعر شكسبير كما يطيق عربي اليوم قراءة شعر عنترة؛ لبعد البون بين إنكليزية اليوم وإنكليزية شكسبير، وهذا البون لا تراه عند

متعلّم العربية في عصرنا لاتصال العربية عبر العصور. والأسباب التي أبقت على هذه الصلة كثيرة؛ لعلّ من أظهرها تواتر هذه اللغة في نقلها من جيل إلى آخر، وإنّ حاجة الناس لتعلّم القرآن الكريم وتفسيره والوقوف على أحكامه وسّع دائرة العناية بهذه اللغة، فنتج عن ذلك ظهور علوم القرآن الكريم والتفسير، وإن تفسير القرآن جعل المفسّر يغوص في أعماق الشّعر الجاهلي خاصة؛ كي يستدلّ على تفسير لفظ أو طريقة في تعبير القرآن بما عرفته العرب من معان للألفاظ، ومن طرائق في التعبير، فاقتضى هذا جمع شعر الشعراء، والتأمل فيه، والتدقيق فيه، لتمييز المنحول من الصحيح؛ فنشأت عن ذلك حركة في الفكر والأدب واللغة والتأليف والتدوين والتعليم استمرت عبر القرون، فكان هذا التراث الضخم في مجالات كثيرة متنوعة، وهذه الحركة لما تزل متواصلة مستمرة، يعين عليها لغة مطواع تتسع لكل علم ولكل الأعصار، فحقّ لها أن تكون لغة العقل الجمعي لهذه الأمة" (موعد2017 : 45)

وهو ينفي عن جلّ قديم النصوص ما يتبدى لكثير من طلابنا وللناس "وكأنها جاءت من سحيق الزمن، فهي لا تصلح لعصرنا، ولا يمكن للناس أن يتفاعلوا معها، فهي كانت في ماضٍ غبر وانتهى.

وما ذاك إلاّ لأنهم لم يدرجوا على إمعان النظر في نصوص الشعر، وفهمها الفهم السليم القويم؛ فإن طلبْتَ من أحدهم أن يشرح لك بيتاً أو قطعة من نصّ تراه لا يقوى على ذلك، وربّما تراه في أحسن الحالات يعبّر عن فهمه بلغة عامية، وقد يشوبها بعض الفصحى .

وحقيقة الأمر أنّ شعرنا العربي مفعمٌ بعذب النصوص، ولكنّ طلابنا لا يعرفون عنها سوى النّزر، وصعبها مما يطرق مسامعهم لأول وهلة هو غاية في الجمال إن أُخذ بأيديهم إليها.

أذكر مرّة أنه خطرتْ ببالي بعض أبيات من قافية تأبط شرّاً، فسردتها عليهم فرأيت في عيونهم الغرابة؛ فقلت لهم: هل فهمتم شيئاً منها، فقالوا: لا. فقلت مُداعباً لهم، ولا أنا أيضاً.

أمليت عليهم بعضها، ومنها: (تأبط شرّاً2003 : 40)

يا عِيدُ مالَكَ من شَـــــوْقٍ وإيراقِ ومَرِّ طَيْفٍ علَى الأَهـــوالِ طَرَّاقِ

يَسْرِي علَى الأَيْنِ والحيَّاتِ مُخْتَفِياً نفسي فِداؤُكَ مِن سارٍ علَى ساقِ

وشرعت أشرح ما عسر من ألفاظ النص، معوّلاً على بعض من التساؤل، من نحو: ماذا يقصد بقوله: يا عيد؟ وكادت الأجوبة تجمع على أنه يريد بالعيد: عيداً ما، كانوا يحتفون به في الجاهلية، أو أنه يخاطب شخصاً بعينه اسمه (عيد).

ولكن عندما ربطت الأبيات بحياة الشاعر، وقلت لهم: إنّ الشاعر يريد بالعيد ما يعتاد المرء من طيف خيال المحبوبة، وسقتُ أنّ تأبط شرّاً كان معروفاً بسرعة العدو، وأنه كان في جلّ حالاته حافي القدمين، وأنه كان يتخيّل طيف محبوبته وهي تأتيه حافية القدمين أيضاً = أصبح النص العويص يفتح ذراعيه للطلاب، وشعرت أنهم يريدون معرفة المزيد عن هذا الشعر، وعن الشاعر، فقدّمتُ لهم ترجمة موجزة له، وأحلتهم على كتاب (الشعراء الصعاليك) للدكتور يوسف خليف رحمه الله.

وشرعت أتمّ شرح البيت بمشاركتهم طبعاً، وبيّنت لهم أن لفظ (إيراق) يعني: الأرق، الأرق الذي كان يقضّ مضجع الشاعر فلا يطيق النوم؛ لأنه ينتظر بفارغ الصبر وصول طيف المحبوبة، فهو في غاية الشوق لرؤيته، وهذا الطيف لا يأتيه دون مكابدة، فتراه يكابد ويعاني حتى ينتهي إلى الشاعر، فهو يمرّ بالأهوال، يطرقها واحدة بعد الأخرى، فهو (طرّاق)، يطرقه ليلاً كي يزوره، وحدّثتهم عن هذه الصيغة في المبالغة، وعن دورها في البيت والسياق، وأثرها في نفس الشاعر، فالطيفّ طرّاق للأهوال، لا يلوي على شيء في الليل البهيم المخيف، ليل الصحراء المفزع، هو طيف جريء يعدو ويعدو، كي يزوره في هذا الوقت من الليل، وليس غريباً منه هذا، فهو شقُّ نفسٍ للشاعر العداء أيضاً، فهو يماثله، ويجاريه في هذا.

كنت أقول مثل هذا الكلام، وأقتنص نظرات الطلبة، وهم مشدوهون مشدودون لما أقول، وكأن شريطاً مصوراً يُعرض عليهم، وهذا دفعني إلى المزيد من شدّهم إلى الأبيات، فتابعتُ الشرح بمشاركتهم: هو طيف طرّاق للأهوال، وهو يسري في الليل يمشي على الرمال، رمال الصحراء، وما أدراك ما تلك الرمال، وهنا أخذني شيء من الاستطراد فتذكّرتُ تجربتي مع رمال الصحراء وأنا قادم من شبه الجزيرة العربيّة إلى الشام في ليلة عصفتْها رياح الصيف، وكيف كنت مذهولاً من مشهد انتقالها من مكان إلى مكان، كثبان تنتقل من مكان إلى آخر تُزرع هنا للحظات، ثم تولّي هاربة تبعاً لحركة الريح، فإن اشتدّتِ الريح وجدتُني

أبيض اللون من رأسي إلى أخمص قدميّ، وألفيتَ شعري الأسود وقد علته الرمال، حتى إنّ هذه الرمال كانت تأخذ حظّها من عيوني، ومن أنفي، وكان يضيق مني النّفس تارة؛ فيخيّل إلي أنه لن يعود.

حدّثتهم عن تلك التجربة، ووضعتُهم في الوقت نفسه في صورة الطيف الذي يسري ليلاً على الأين، وتوقّفتُ عند لفظة الأين، وما تَحْملُه من دلالة في النصّ، وتمنحه من ظلال، وتابعتُ قائلاً: إنّ مكابدة الطيف لم تتوقف عند ذلك، فهو يسري ليلاً مُختفياً، وسألتهم عن معنى لفظ: مُختفياً، فظنّ كثير من الطلبة أن الطيف يختفي مبتهجاً لأنه في طريقه إلى الشاعر، ولكني عندما ربطت لهم معنى اللفظ بما ذكرته لهم قبلُ بأن الشاعر كان في جلّ وقته حافي القدمين، وطيفُه وهو حافي القدمين يدوس على (الحيات)، وما أدراك ما (حيّات) الصحراء= أدركوا مدى ما يكابد هذا الطيف كي يصل إلى المحبوب، وإذ ذاك قلت لهم: بالله عليكم: ألا يستحق هذا الطيف الذي كابد ما كابد، وعانى ما عانى كلمة يكافأ بها؟؟ قالوا: بلى. فقلت: مكافأة الشاعر هي في الشطر الثاني من البيت: انظروا إلى خطابه للطيف: نفسي فداؤك من سار على ساق....على أني ألمحتُ لهم أنّ قول الشاعر فيه معنى آخر ساقه الشرّاح....

وهكذا عاش الطلبة مع تأبط شرّاً وطيفه، وبعض مشاهد الصحراء ليلاً... وحين شعرتُ أنهم قد عاشوا مع سحر البيان سألتهم: ما رأيكم بهذا الشعر؟

قالوا: هو غاية في العذوبة والروعة والجمال، قلت لهم: وكلامكم قبل قليل؟ ألم تقولوا: إن الشعر قد استغلق فهمه عليكم؟

قالوا: كان هذا قبل أن نعيش مع النصّ.

قلت لهم: كذا هو جلّ شعرنا العربيّ، جرّبوا أن تعيشوا مع نصوصه ومشاهده.

ثم ذكرتُ لهم أنّ الشعر العربيّ غني جداً بالمشاهد الحافلة بالمشاعر والحس المرهف، ولكن مشكلتنا أن هذا الكنز لا يكاد يقربه أحد في هذه الأيام.

ثم حدّثتهم عن بعض ما في شعرنا الجاهلي من مشاهد هي غاية في الرّوعة والجمال –كان قد حدّثنا عن بعضها أستاذنا الدكتور وهب روميّة في المرحلة الجامعية الأولى– من صنو قصة الجمانة البحريّة

التي ساقها الشاعر المسيّب بن علس، وقصّة الشّماخ مع قوسه، وحديث الأعشى في قصّة البقرة الوحشية، ومشاهد الحُمر في شعر لبيد والشمّاخ، وسوى ذلك من مشاهد الصحراء التي يعجّ بها شعرنا الجاهلي.

وهي مشاهد تُظهِر مدى جمال هذا الشعر" (موعد 2019 :6-11)

ولا ريب أن رفع سويّة الطلبة في العيش مع صنو تلك النصوص، حديثها قبل قديمها يُفضي تذوّقها، والوقوف على ما فيها من سحر اللغة والبيان "ولعلّ التّأمل والتّدبر فيها يمنح الروح والنفس فيضاً من ساحر النشوة التي تنقلُ المرءَ وتسمو به إلى عالم النقاء والصفاء؛ عالم لعلنا نكون أحوجَ إليه، وقد تبّلد منا الحسّ في عالم المادة حيث يقبع التراحم في قصيّ الأركان" (2019 : 5).

ولذا وجب على الناشئة أن ينهلوا من موروثها الغني؛ فيفيدوا منه في رسم آفاق المستقبل؛ هذا المستقبل الذي لا ينهض دون أدوات تعين على إنجازه، وفي طليعتها تأتي اللغة التي لا يمكن من دونها أن ننفض غبار السنين عن كنوز التراث الدفين، فتجلوه للناشئة لينهلوا من معينٍ عذبٍ لا ينضب ولا يغور، وأنّى له أن يصبح غوراً وفي أعماقه تسمقُ الهوية والشخصية عالية شامخة تدعو من أدبر وتولّى عن ذاك المعين؛ للنهل من عذب كنوزه، وتوظيفها في الحاضر المعاصر.

المصادر والمراجع

الكتب:

-المصطاوي، عبد الرحمن(1424هـ -2003م)، ديوان تأبّط شرّاً، لبنان، دار المعرفة، الطبعة الأولى.

- د. موعد، محمّد عطا(2017م)، الموروث اللّغويّ وأثره في بناء اللّغة، دمشق، وزارة الثّقافة، الهيئة العامة السّوريّة للكتاب، سلسلة قضايا لغويّة.

- د. موعد، محمّد عطا(2019م)، سحرُ اللغة والبيان، أمثلة من نديّ النصوص، دمشق، وزارة الثّقافة، الهيئة العامة السّوريّة للكتاب، سلسلة قضايا لغويّة.

المقالات:

- عكاش، مدحة، شفيق جبري، الموسوعة العربيّة، المجلد السّابع (أعلام ومشاهير)، دمشق.